الأستاذة: خميسة بن ترية
أستاذة مساعدة بالمدرسة العليا
للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية - بوزريعة.

قراءة نقدية في طريقة تدريس النحو والبلاغة بالمدارس الجزائرية

الملخص:

اللسان عنوان الإنسان، يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله، ولأهمية اللغة في حياة الإنسان وحركات المجتمع، تعددت الدراسات اللغوية متخذة أطرا متباينة وأزمنة متفاوتة.

يميز بعض خبراء المناهج بين المحتوى والخبرة التعليمية، إن مصطلح خبرة التعلم يشير إلى التفاعل الذي يحدث بين المتعلم والظروف الخارجية في البيئة المحيطة به ويحدث التعلم من خلال السلوك الإيجابي من الطالب.

ويصف بعض خبراء "خبرات التعلم" بأنها مجموع العمليات التي يقوم بها الطالب أثناء تعامله مع محتوى المنهج أو (الطريقة)، فالمحتوى في رأيهم يعني المادة التي يشتمل عليها المنهج أو الطريقة بينما تعني خبرة التعلم عملية التفاعل.

نقف في بحثنا هذا إن شاء الله تعالى على أهم مميزات المنهج التقليدي في تدريس اللغة العربية ولا يفوتنا كذلك أن نشير إلى عيوب هذا المنهج.

اللغة كما أنها أداة التحصيل والاطلاع هي أيضا أساس التعامل ووسيلته.

وطلاب وطالبات المدرسة العليا للأساتذة – التي يفترض فيها أن تعد أساتذة في التعليم المتوسط و الثانوي، أشد احتياجا من سواهم إلى متابعة دراسة اللغة العربية حتى يكونوا أقدر على حمل رسالة التعليم وصياغة العقول، فاللغة هي عدتهم الأولى في أداء مهمتهم وهي عمادهم في نقل المعلومات والأفكار إلى أذهان تلاميذهم، ومن تحسنت لغته من أساتذة التعليم (المتوسط والثانوي) يكون أقدر على أداء رسالة التعليم، وتصوير الأفكار والمعلومات من سواه لأن لغة الأستاذ جزء من كيانه التربوي في مادته وطريقته.

ومن أغراض تدريس اللغة العربية نذكر:

– تنمية الثروة اللغوية للطلاب في الألفاظ والمعاني والأساليب (كما وكيفا)، بتنمية ميل الطلاب إلى القراءة – قراءة الآثار الأدبية –، فالأدب بمعناه العام وعاء ثقافي ووسيلة من وسائل الحصول على الكثير من ألوان المعرفة والعلوم الإنسانية التي يعرضها الأدباء في شعرهم ونثرهم.

– إفساح المجال لذوي المواهب الأدبية لقرض الشعر أو ممارسة الكتابة (الارتقاء بفنية التعبير).

من عيوب المنهج التقليدي في تدريس اللغة العربية نذكر مايلي:

– تقليدية طرق التدريس لقواعد اللغة العربية بصفة خاصة وللغة نفسها بصفة عامة.

– ازدواجية اللغة الدراسية منذ الصغر (عامية وفصحى) مما يسبب تشتيت الجهد الفكري وقلة الارتكاز لدى الطالب.

– كثير من الأخطاء ناتجة عن سيطرة العامية على ألسنة الطلاب

– كثير من الأخطاء ناتجة عن الجهد الذهني الذي يصرفه الطالب لاستحضار المعلومات والألفاظ، وهذا الجهد يصرفهم عن المراقبة النحوية فيقعون بذلك في أخطاء لا يدركونها.

أغرق طالب العربية في النظريات التي أصبحت غاية في حد ذاتها، بدلا من أن تكون وسيلة لغاية أعم ولهدف أكمل وأتم – إنه يتمثل في القدرة على الجواب وجودة السؤال والخطاب، وهو الغاية الحقيقية لأحكام العربية، يشهد على ذلك قول ابن خلدون : " فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل "[1].

استمرت المعاناة حتى مطلع القرن الحالي، يدرس الطالب أحكام العربية، ومبادئها مع جهل غايتها، كان من نتيجة ذلك أن وقع الطالب في الوهن والضعف، ذكر "مارون عبود" في أحاديث القرية " كيف تعلمنا" قال: " وكانوا في ذلك الزمان يعتمدون على الذاكرة، يحشون عقل الطالب محفوظات لا أول لها ولا آخر، شعر ونثر من كل عصر، والويل لمن يلحن أو يخرم حرفا أو يخطئ في حركة عين المضارع فتقلع عينه أو تصلم أذنه، المتقدم من الطلاب يعلم النحو في ألفية ابن مالك، شعر منظوم يحفظه الطالب كالماء الجاري، أما شرح المعلم فهكذا، يقول أولا بيت ابن مالك بكامله (من الرجز):

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف كالكلم

ثم يشرح قائلا: يعني كلامنا لفظ مفيد مثل استقم، وينتقل إلى الشطر الثاني فيقول: معنى هذا الشطر الكلم أم وفعل وحرف، فهمتم؟ فنجيب بصوت واحد: نعم معلمي... ومرت السنة على ذلك المنوال، يلقي علينا ألفاظا يضل في واديها الشنفرى ويتيه امرؤ القيس"[2].

واستمر الحال – حتى عهد قريب – فقد معه طالب العربية ذوق اللغة، وخسر سلامة الكلام ومهارة العبارة، جلت بنت الشاطئ تأوهات شكت فيها حال تدريس العربية، وما حل بالطالب من خسارة اللسان قالت: " وإذ أحاول

أن أتجه إلى طريق آخر، يبدو لي أن عقدة الأزمة ليست في اللغة ذاتها، وإنما هي في كوننا نتعلم العربية قواعد صنعة وإجراءات تلقينية وقوالب صماء، نتجرعها تجرعا عقيما، بدلا أن نتعلمها لسان أمة ولغة حياة، وقد تحكمت قواعد الصنعة بقوالبها الجامدة، فأجهدت المعلم تلقينا والتلميذ حفظا، دون أن تجدي عليه شيئا ذا بال في ذوق اللغة ولمح أسرارها في القول[3].

وفي الطريقة المتبعة في تعليم العربية، يخسر الطالب خسارة لا تقدر بثمن، وهي بأصغر صورها تحيله إلى إنسان أبكم لا يقوى على التعبير وهو لا يعاني من علة، أي هو ناطق بالقوة عاجز بالفعل.

الطريقة المتبعة في درس القواعد:

ليس الغرض من تدريس النحو تعليم الرفع والنصب والجر والجزم لأن هذا قد فرغ منه – منذ قرون – إنما الهدف مبني على قطف ثمرة النحو واللغة، وهي الناحية العملية المتمثلة في إحكام النطق وسلامة التعبير.

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تدركه إذا لم يلحن
وإذا التمست من العلوم أجلها فأجلها حقا مقيم الألسن

لعله من أسباب صعوبة النحو العربي – في الجامعة – أنها كدست أبواب النحو في مناهجها، وأرهق بها التلاميذ، وأن العناية متجهة إلى الجانب النظري منها، فلم يعنوا بالناحية التطبيقية إلا بالقدر الذي يساعد على فهم القاعدة وحفظها للمرور في امتحان يوضع عادة بصورة لا تتطلب أكثر من ذلك، فلسنا في حاجة إلى أن نقتنع بأنه لا خير في قواعد يفهمها الطلبة ويحفظونها دون أن تتبع بتطبيق عملي يجعل اللغة مهارة من شأنها سرعة

الأداء مع صحة التعبير وهذا هو الجاحظ يقول في إحدى رسائله: " وأما النحو فلا تشغل قلبه (أي الصبي) به إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه ومازاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به من رواية المثل الشاهد، والخبر الصادق، والتعبير البارع..... و عويص النحو لا يجدي في المعاملات."

وعلى هذا المبدإ يمكن القول بإلغاء الإعراب التقديري، والإعراب المحلي في المفردات والجمل، والاستغناء عن كثير من مسائل الصرف وكثير من أبواب المشتقات والتصغير والنسب ثم تدرس أبواب النحو على أنها أساليب بين معناها واستعمالها صلة ويقاس عليها، ونكلف الطلبة عناء إعرابها وتخريجها على قواعد النحو، بل إنه يمكن تثبيت كثير من أبواب النحو والصرف بسهولة على ألسنة الطلبة وأقلامهم بطريق التطبيق العملي دون حاجة إلى دراسة نظرية تشرح فيها القواعد أو تحدد فيها التعاريف والمصطلحات مثل: أبواب التطابق في الإفراد والتثنية والجمع، أو التذكير والتأنيث، وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة، والضمائر وإسناد الأفعال إليها، وكتثنية المقصور و المنقوص والممدود وجمعها، واستخراج المصادر، وتصريف الأفعال، والتدريب على البحث في المعاجم فعن طريق هذا التدريب وفي خلاله يدرس المجرد والمزيد، وأبواب الثلاثي المجرد، والميزان الصرفي في أبسط صوره (مما لا غنى عنه للباحث في هذه المعاجم).

ما أكثر من يحفظون أحكام النحو ويستظهرون شروطها واستثناءاتها وما أقل من يحسنون استخدامها في منطقهم وعند التعبير عن حاجاتهم مثلهم كمثل الطبيب الذي يحفظ كتب الطب ولا يحسن شفاء مريض ووصف العلاج الناجع والدواء النافع كأن المرض الاجتماعي انتقل إلينا من كوة اللغة وهو مرض يتمثل في كثرة القول وقلة العمل ولهذا اشتكى الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: " نحن قوم حبب إلينا القول وكره إلينا العمل والفعل."

الطريقة المتبعة في تدريس البلاغة:

تعرف البلاغة بأنها: ذلك العلم الذي يحاول الكشف عن القوانين العامة التي تتحكم في الاتصال اللغوي، ليأتي على نمط خاص حيث تعمل على توضيح الطرق التي يمكن بها تنظيم الكلام لينتقل من الأديب إلى القارئ على أكمل وجه ممكن؛ أي أن البلاغة ترمي إلى تمكين الأديب من إتقان أدوات الاتصال الفعلي بالناس.

الطريقة الحالية في تدريس علوم البلاغة تؤدي إلى الإخفاق في الوصول بالطلبة إلى الغاية المرجوة منها، فالطريقة الحالية تفصل علوم البلاغة عن دروس الأدب، وتعالجها في حصص مستقلة بأسلوب علمي نظري، يشعر الطالب بأن درس البلاغة شيء متكلف، فيقف منه موقف الحيرة و الشك في قيمته الأدبية.

– وليتهم كانوا مع ذلك يتجهون في دراستها اتجاها أدبيا ذوقيا – فكل ما يفعل الآن في هذه الناحية أن يوقف بالطلبة عند تحديد المصطلحات البلاغية وتعريفها، وهم بذلك يعلمون بالصورة التي سيمتحنون بها تحريريا، فالمسألة كلها حفظ للقاعدة بصورة يسهل الامتحان فيها، وإن تجاوزوا ذلك فإلى تعليل بعض الأحكام البلاغية تعليلا منطقيا لا صلة له بالذوق، كأن يقولوا مثلا إن الاستعارة أبلغ من التشبيه (لأنك تركت التعبير للذي يشعر بالاثنينية، وادعيت أن ليس هناك إلا شيء واحد تتحدث عنه).

وماذا يكون رأي الطالب في قيمة البلاغة، وهو ينفق وقتا ومجهودا لمجرد أن يعرف أن هذه العبارة استعارة أو كناية وأن هذا استفهام خرج عن معناه الأصلي إلى معنى آخر؟ إننا لا نصل بالبلاغة إلى غايتها من تكوين الذوق الأدبي حتى نتخذها وسيلة لبيان قيمة النصوص الأدبية.

الواجب ألا يكون للبلاغة درس خاص تشرح فيه قواعدها، وإنما يجب أن تعلم في حصص الأدب، و في خلال نصوصه، ليتبين الطلبة منزلتها الرفيعة من الدراسات الأدبية وليسهل علينا أن نتجه بها دائما اتجاها ذوقيا خالصا.

وليست البلاغة كالنحو - من حيث صلتهما بالأدب - فالنحو لا يشرك الأدب في تحقيق غايته من تكوين الذوق الأدبي أما الأدب والبلاغة فلهما غايات مشتركة وحين نتناول أبواب البلاغة بالدرس فإنما نفعل ذلك لتحقيق الغاية من درس الأدب.

و نحن مخطئون أشد الخطإ حين نعتبر البلاغة من العلوم الآلية كقواعد النحو والصرف، فقد جرت العادة أن يبدأ (المعلمون) عملهم في درس البلاغة بالتعريف والتحديد، وضرب الأمثلة واستخراج القاعدة منها، ثم إصدار الأحكام البلاغية، وهي طريقة غير صالحة في تدريس فن يعتمد على الذوق والإحساس، فإنه حين نعرض على الطلبة ألوانا من صور التعبير يجب أن نعرضها من حيث إنها وسائل تعمل على تكوين الذوق الأدبي لا قواعد ومباحث يختبر فيها العقل بهذه التعليلات الفلسفية لنواحي الجمال في القول البليغ.[4]

إن نجاحنا في تدريس العربية يعتمد أساسا على مدى إدراكنا العلمي للواقع اللغوي كما هو لا كما نتمناه أو نرسمه في مخيلتنا، وعلى انطلاقنا من هذا الواقع نحو إشاعة خصائص الفصحى تدريجيا في لغة المتعلمين[5]، ووضع الحلول لتلك العقبات التي تحول دون التعلم الجيد للغة العربية (هذه العقبات منها ما يرجع إلى طبيعة اللغة العربية نفسها، وإلى البيئة الجزائرية التي يتعلم فيها الطالب وإلى الطالب المتعلم نفسه بخبرته اللغوية السابقة).

المراجع المعتمدة

–1 مقدمة ابن خلدون، الإمام عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية بيروت، طبعة جديدة منقحة، ص 1082.

–2 مارون عبود، أحاديث القرية – أقاصيص و ذكريات – دار مارون عبود بيروت، طبعة جديدة 1984، ص 107 .

–3 بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن)، لغتنا والحياة، دار المعارف القاهرة مصر، ص 196 .

–4 حسن شحاته، تعليم اللغة العربية بين النظرية والتطبيق، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثالثة 1996 سنة، ص 190 .

–5 محمد كشاش، صناعة الكلام كيفية اكتساب مستحسن الخطاب ومسكن الجواب في ضوء الأساليب التربوية، المكتبة العصرية – صيدا بيروت، الطبعة الأولى 2000م، ص 33 .